الإسلام عز العروبة

الأستاذ درويش العلواني

وزير الدولة والاوقاف سابقا
(دمشـــق)

يظن بعض ذوي التفكير السطحي ان القومية لا تكمل الا اذا ابتعدت عن الدين وكأنها شيء فوق الاديان او لا صلة لها بها ، وما عرفوا ان القومية العربية بصورة خاصة لا تستطيع الابتعاد عن الاسلام ولا عما جاء به كما لا تستطيع اللغة العربية ان تكون ذات شأن بعيدة عن القرءان الكريم . واننا لا نستطيع ان ندرس التاريخ العربي بعيدا عن الواقع الاسلامي والحضارة الاسلامية .

ويظن آخرون ان الاسلام كائن مستقل عن العرب والعروبة وانه دين فقط كغيره من الاديان السماوية لاعلاقة له بمنشئه ولا بالامة التي خرج منها صاحب رسالته ولذا يرون ان القومية العربية ضد الاسلام وانه بالتالي يجب ان يحاربوا هذه الفكرة الدخيلة .

كلا الطرفين مغال في نظرته بعيد عن الصواب لان العرب المسلمين لا يقرون العصبية العنصرية تمشيا مع هدي رسول الله الذي يقول : «ليست العربية لاحدكم من اب ولا من ام ، وانما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي » .. وكان يقول : « سلمان منا ءال البيت » .. رغم انه فارسي . كما دعا المسلمين الى حب العرب اذ قال : « احبوا العرب لثلاث : لانني عربي والقرءان عربي ولسان اهل الجنة في الجنة عربي ».

ففي أواخر القرن السادس للميلاد كانت القوتان المتقابلتان المسيحية والمجوسية تحيطان بشبه جزيرة العرب وظلت ارض العرب واحة حصينة آمنة من الغزو الى حد ما الا من بعض اطرافها ، وكان لموقعها وطبيعتها الجغرافية اثر في حماية اهلها وفي تكوين طباعهم ومزاياهم ، فقد حصنتهم البحار المحيطة من ثلاث جهات والصحراء من الجهة الرابعة من تغلغل الاعاجم ونفوذ الدولتين الكبيرتين اذ ذاك : دولة الفرس ودولة الروم وجعلتهم يعتزون بالحرية ويفخرون بالاباء والشمم ويباهون بالحمية والنجدة والكرم والوفاء مما طبع العربي على خصائص وميزات ظلت ترافقه زمنا طويلا .. وكانت سببا في اثارة الغيرة والحقد لدى العناصر الاعجمية التي ابت ان تقر لهم بميزة او فضل ولو ظهر الاسلام في بلادهم وكان القرءان عربيا وصاحب الرسالة من اشرف بطن في العرب ومن خير ولد آدم وكان خيارا من خيار .

لم تكن هنالك مناطق زراعية الا في اليمن وبعض الواحات التي تصل اليها الاودية حاملة بعض الماء عقب الامطار العارضة والنادرة والمفاجئة او بعض العيون والينابيع القليلة في اكناف الجبال العالية او القريبة من البحر . كما لم تكن هنالك صناعة تذكر الا

ما كان من صنع ادوات الترحل والسفر وادوات الحرب والقتال وحتى هذه كانوا يستوردونها من البلاد المجاورة اذ كانوا يشاركون في رحلة الشتاء والصيف الى اليمن والشام ويقيمون الاسواق للمبادلة والتجارة في مكة وما حولها والمدينة وما جاورها وكان البيت العتيق الذي جعله الله للعرب مثابة وامنا فاطعمهم من جوع وآمنهم من خوف اثر في تنظيم مكانة ام القرى . هذا المركز التجاري الهام لمكة المكرمة جعل من فيها من العرب من قريش واحلافها سادة الجزيرة وامراء الجيوش في الحروب واصحاب الحل والربط بين القبائل الاخرى واهل الفصاحة والبيان فكثر فيهم الخطباء والشعراء وازدانت اسواقهم بالمناظرات والندوات الادبية الى جانب البحث في الشؤون الاجتماعية والسياسية التي تنظم حياتهم القبلية على نطاق محدود .

لم يند من بلاد العرب عن جهالة المدينة المعاصرة لهم الا بعض اطراف الجزيرة في اليمن وما جاورها وبلاد الشام وارض الحيرة مما جعل هذه المناطق طعمة للغازين بسبب ازدهار الحياة فيها ولطافة الطبيعة نسبيا ووفرة الانهار والامطار فاقاموا السدود وبنوا المدن والحصون وزرعوا الارض وصنعوا ما هم بحاجة الى صنعه والى بيعه في بعض الاحيان الى البلاد الاخرى . وكانت هذه المناطق العامرة الخصبة مادة جذب للديانات الاخرى من وثنية معقدة كالمجوسية في شرق العراق واليهودية في اليمن والنصرانية في نجران وبلاد الشام وبعض انحاء العراق الشمالية فلما جاء الاسلام وجد العرب فيه ضالتهم والفوه منسجما مع بعض طباعهم اذ دعاهم الى حرية الفرد من تسلط الكبراء وحرية الكبراء وحرية الفكر من تفاهة الوثنية وتعقيدات الشرك والى كرامة الانسان باتصاله مباشرة بالواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد . علمهم الاباء والشمم وامرهم برد العدوان على من اعتدى عليهم والاستعداد لارهاب عدو الله وعدوهم . ومنعهم من العدوان لان الله لا يحب المعتدين ، وازال العصبية الجاهلية العمياء وجعل اكرمهم عند الله اتقاهم وساوى بين الناس من كل جنس وامرهم بالتعارف والتعايش السلمي وقال لهم : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . وكان خطابه للناس كافة وليس للمؤمنين وحدهم او العرب وحدهم بل كانت دعوته انسانية الا اذا حدث عدوان على حدود الله او عباده. امرهم باقامة العدل ولو كان على انفسهم ومنعهم ان يظلموا بسبب شنآن بينهم وبين غيرهم وقال لهم : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى ». حضهم على طلب العلم لمعرفة آلاء الله و آياته وللاستفادة مما خلق لهم وحثهم على السعي لطلب الرزق وجعل الاجر على قدر المشقة وقال لهم : « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » .

وقد منح الله العرب شرفا ان النبي الكريم منهم والقرءان العظيم جاء بلغتهم وانه ذكرهم فيه كثيرا لعلهم يعقلون قيمة هذا الشرف « انا انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم » . وفي هذا تخليد لامة العرب بان حفظ لها لغتها بحفظ القرءان : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » . وحفظ لها تاريخها ومجدها ان كان بناة الاسلام الاولون من العرب ومن صحابة وعشيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام لا لانهم كذلك بل لانهم شعروا بالمسؤولية اكثر من غيرهم وتحملوها كاملة حتى ان ابا بكر حارب المرتدين لامتناعهم عن دفع الزكاة ولم يرض ان يستاهل في منع عناق كانوا يؤدونه الى رسول الله ولو نطقوا بالشهادتين وسير جيش اسامة لحرب الروم ولم يتردد في ارساله رغم حرج الموقف وصعوبة الظروف . وكانت الفتوح وكانت الانتصارات وعلت راية الاسلام يرفعها ابناؤه البهاليل من العرب الاولين فرفع الله شانهم واعلى منزلتهم وصار التقرب الى حكامهم قربى من الله لانهم حملة رسالته وحماة دينه وكانوا سببا في ان يدخل الناس في دين الله افواجا وهذه حقيقة تاريخية لا تعصب عنصري او حجة لاقرار نظرية عرقية لم يدع اليها الاسلام ابدا .

حفظ الله اللغة العربية بالقرآن الكريم :

قرر اكثر علماء الاجتماع وكبار المفكرين في القضايا التاريخية والسياسية ان اللغة اهم عنصر من عناصر تكوين الامة فهي التي تنقل الافكار بايسر وسيلة الى ابنائها وهي التي تخط طريقة التفكير وتساعد على توحيد الآراء وتجانس الانطباعات وهي التي تعبر عن روح الافراد والجماعات .

وان حركات التحرير من السيطرة الاجنبية تبتديء باحياء اللغة والتغني بأجمل ما انتجه شعراؤها وخطباؤها في قصائد وخطب ثم السير على نهجهم وتقليدهم في الاسلوب والموضوع :

ما اوانا نقول الا محارا

او معادا من قولنا مكرورا

وعندما تقوى الامة وتنتصر ستنشر لغتها لا بالقوة بل بطبيعة ما تستوجبه السلطة من وجود رجال يحكمون ومشرعين يشرعون وقضاة يقيمون العدل وتجار يتقربون من الحكام لرواج تجارتهم ورجال صناعة وزراعة يحتاجون لحماية السلطة الحاكمة لازدهار اعمالهم ، كل هذا يستوجب انتشار لغة الحكام الجدد ناهيك من التسابق الى الدخول في الدين الجديد رغبة في الخير او رهبة من الله وما يترتب على بقائهم في الشرك والكفر من عقابهم في الدنيا والآخرة او على الاقل تقربا من الحكام ومشاركة في السلطة على اختلاف وجوهها .

بدهي ، كل هذا حدث للغة العربية عندما نقلها الاسلام الى ارجاء الدنيا مع الفاتحين والى افكار المفكرين لكثير من اهل الارض ولو بقوا على دين ابائهم واجدادهم فاصبحت واسطة التفاهم بين العديد من العلماء والفلاسفة كما هو الحال بالنسبة للغات الحية الحديثة في العالم المعاصر . ومن اجل فهم القرءان الكريم وضع ابو الاسود الدؤلي في عهد الامام علي قواعد النحو وذلك عندما كثر اللحن في الكلام وتداخلت اللغات الاعجمية من فارسية ورومية في اللغة العربية بسبب الاختلاط بعد انتشار الاسلام ، ومن اجل القرءان الكريم وضعت علوم اللغة من بلاغة وبيان وبديع وجمعت اوزان الشعر في العروض وتقرب المختصون في تفسير القرءان وجمع الحديث الى الله بالتعمق في فهم اللغة العربية واسرارها وبيان اعجاز القرءان وفصاحته ولولا ذلك لتغيرت اللغة العربية وانقسمت الى لهجات واصبحت لغات شتى كما حدث للغة اللاتينية التي نشأت عنها الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية وغيرها . فالاسلام الذي اوجب الصلاة والدعاء والاذان باللغة العربية واوجب تلاوة القرءان وفهمه ، حض المسلمين ان يسارعوا الى فهم اللغة العربية ولو كان المسلم من غير العرب .

... اما العرب انفسهم الذين انتقلوا مع الدين الجديد الى انحاء بعيدة في ءاسية وافريقية واوربة فقد نشروا لغتهم وكتبوا بها ووصفوا اسس حضارة اسلامية عريقة واحتراما لدينهم لم يتهاونوا في لغتهم ولم يفسدوها بالتحريف والرطانة بل بقوا محافظين عليها متمسكين بها رغم المحن التي اصابتهم على مر العصور ورغم تسلط الاعاجم من مسلمين وغيرهم على بلادهم واكبر مثال على ذلك في التاريخ المعاصر الثورة الجزائرية عام 1954 م التي انتهت الى النصر المبين فقد كانت المعارك الحربية تسير فيها جنبا الى جنب مع معركة احياء اللغة العربية والتعريب ولولا الاسلام لكانت اللغة العربية قد زالت بطغيان الفرنسية وجدير بالذكر فضل رجال الدين المخلصين في بلاد المغرب العربي الذين تحصنوا بالمساجد وعلموا القرءان الكريم ونشروا اللغة العربية وفضل جامعة القرويين في «فاس» وجامع الزيتونة في «تونس» ومساجد الجزائر وجهاد جمعية العلماء فيها . وفي المشرق العربي كان حكم المماليك والعثمانيين الطويل كفيلا باندثار اللغة العربية لولا الاسلام والقرءان ولولا النور الذي كان يشع من المساجد والمآذن ويدعو الى الله باللغة العربية .

خلدت الحضارة الاسلامية اللغة العربية وجعلت العروبة والاسلام صنوان تسقى بماء واحد وقد كانت العربية قبل الاسلام لغة الحضارة البدائية بسيطة سهلة تتناول مستلزمات الحياة البدوية في البادية من تنقل وترحل ورعي للابل والغنم وركوب الخيل وغزوات وحروب وفروسية وحض على القتال والثار وتفاخر بالعصبية وتكاثر بالاموال والاولاد ومباهاة بالكرم والمروءة والنجدة ومعرفة بالانساب واقتفاء الاثر وتطلع الى الانواء الجوية وتوقع لتقلباتها من رياح ومطر وحر وقر واحاديث تروى في الليالي الطويلة في الشتاء والليالي المقمرة في بقية الفصول ، فلكل هذه الدنيا البدوية لغة تعبر عنها وكان من ذلك ان كثرت المترادفات لكثرة القبائل وتنوعت اللهجات بسبب بعد المسافات والحياة المغلقة التي تعيشها كل عشيرة على شكل وحدة متنقلة .

اما في الحواضر والمدن فكانت اللغة ارقى بسبب تعقد الحياة بعض الشيء وما تستلزمه ظروف الاستقرار من عمران وتنظيم للحياة الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية اذ كانت ادارة القبائل فيها منظمة بعض الشيء فكانت الاحلاف وحقوق الجوار وتنظيم مواسم الأسواق للتبادل التجاري والندوات

للمدارسة في الشؤون العامة ومطارحة الشعر والقاء الخطب وتقدير الرجال وتكريم الشعراء وتسليم الرئاسات وما الى ذلك مما جعل اللغة العربية تتقارب لهجاتها وتتوحد مفرداتها لتكون كلمات مشتركة للحياة المشتركة وكانت لهجة قريش افصح اللهجات ولما جاء الاسلام جعلها اللغة الرسمية وصارت لغة المسلمين في انحاء الجزيرة وتلاشت تدريجيا اللهجات العربية الاخرى .

وهكذا وحد الاسلام وسيلة التفكير وتقاربت المفاهيم واساليب البحث والنقاش بل وظهرت كلمات جديدة كالصلاة والوضوء والزكاة او صار للكلمات القديمة مدلولات جديدة . ولما فرغ المسلمون من الفتح بعد العهد الاموي واتسع لهم الرزق واستقرت بهم الاوحال وانتظمت الدولة الاسلامية وصار لها دواوين وادارات وجيوش جرارة وقيادات وما يتبع ذلك من اعداد وتسليح وتموين وتدريب وانضباط وتوجيه كما اصبحت للحياة الاقتصادية قيمتها الجديدة بعد اتساع نطاق الزراعة والصناعة والتجارة وتفرع طرق المواصلات وزيادة وسائل النقل وبعد ان اصبح للبريد دوره في تنظيم المخابرات وتنفيذ الاوامر ومراقبة الحكام والموظفين كل هذا استوجب ان تتوسع اللغة العربية لتستوعب متطلبات هذه الحياة الجديدة ورغم انها استعانت باللغات الاخرى لدى المسلمين الجدد من الاعاجم الا انها نظرا لمرونتها وسهولة الاشتقاق فيها تطورت وظهرت فيها كلمات ومصطلحات جديدة اما معربة او موضوعة مما افناها ووسع افق التعبير بها .

وفي نفس الوقت اخذ عقل المسلمين يتفلسف في الدين فيثير خلافات دينية ويجتهد في كبتها والتوفيق بين مظاهرها بعد ان كانت عقيدة المسلمين في اول امرها بسيطة ساذجة لا تابه لخلاف ولا تلتفت الى بحث وفلسفة وكاد ينقضي العصر الاول في ايمان لا جدل فيه ولما هدأ الناس اخذوا ينظرون ويبحثون ويجمعون بين الاشباه ويقارنون بين المتناقضات وبخاصة لما كثرت الترجمة ودخلت الفلسفة اليونانية وعرفت المذاهب المختلفة في الديانات الاخرى من يهودية ومسيحية وزرادشتية ومانوية وصابئة ودهرية عند ذلك اخذ العلماء المسلمون يتسلحون بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة ليدافعوا عن دينهم امام اصحاب العقائد الاخرى او امام المتشككين من الذين لم يدخل الايمان في قلوبهم او من المنافقين الذين تظاهروا بالاسلام ليكيدوا له . في هذه الفترات التي انطلق فيها عقل المسلمين في مختلف مجالات العلوم والآداب والمعرفة ازدهرت اللغة العربية ايما ازدهار واصبحت لغة الحضارة الاسلامية وصارت لغة العلم والفلسفة والادارة والاقتصاد وانتقلت مع المسلمين الى انحاء بعيدة في الصين واندونيسيا وجزر « الواق واق » في المحيط الهادي ـ ويك ـ حاليا ، وباحتكاك المسلمين مع غيرهم بواسطة التجارة والقوافل انتشر الاسلام من غير حرب ولا فتوح كما في ماليزيا والفيلبين واندونيسيا وغيرها وانتقلت اللغة العربية مع القرءان الكريم الى كل هذه الاصقاع وهي وان لم تصبح لغة الشعوب المسلمة صارت معروفة لديهم مقدسة عندهم ودخلت كثير من كلماتها في لغاتهم وصارت المصطلحات الدينية سائدة بينهم من سلام وتحية وحمد لله وشكره ودعاء وتوسل واستغفار وصار التقي الصالح المقرب الى الله هو الذي يتكلم اللغة العربية ليفهم معاني القرءان وينشر تعاليمه بين مواطنيه واصبحت الحروف العربية حروف اللغات المحلية كالفارسية والاردية مما جعل القرابة اقوى بين هذه اللغات واللغة العربية . وهكذا حفلت مكتبات البلاد الاسلامية بالكتب العربية المخطوطة او المنسوخة في بخارى وسمرقند ولاهور وشيراز ونيسابور ودلهي وعليكرة رغم ان شعوب هذه البلاد غير عربية ولكن الاسلام وحضارته التي شارك فيها المسلمون كان سببا في جعل اللغة العربية لغة الحضارة في القرون الذهبية وعهود الازدهار . حتى ان الافلاطونية والافلاطونية الحديثة والفلسفة الاغريقية بصورة عامة لم تصل مشروحة الى الغرب الا بواسطة العلماء العرب كابن رشد في المغرب والاندلس وابن سينا والفارابي في المشرق وابن الطفيل وابن خلدون وغيرهم .

اليس هذا دليلا على ان الاسلام رفع شان العربية والعرب في الحضارة العالمية لفترة طويلة من الزمن ؟ الا تدلنا آثار العرب في فرنسا واسبانيا وايطاليا وجزر البحر الابيض المتوسط على مدى ما وصل اليه العرب من عزة وفخار بفضل الاسلام ؟

حق الاسلام على كل عربي ان يفخر به :

وبعد ان المعنا في هذا الاستعراض الموجز الى ما كسبته اللغة العربية من القرآن الكريم والاسلام الحنيف ومن المسلمين الفطاحل من مفسرين

ومحدثين ولغويين وعلماء كلام وفلاسفة عظام وعلماء في مختلف العلوم الكونية من طب وطبيعة وكيمياء ورياضيات وفلك وجغرافية وتاريخ وعلم اجتماع . وبعد ان اصبحت الحضارة الاسلامية عربية الشكل والقالب حتى لم يعد المحقق يفرق بين التسمية هل هي اسلامية صرف ام عربية صرف ... فهي كلتاهما معا واصبحت امهات المؤلفات والكتب العلمية والفلسفية والدينية لا تكتب الا بالعربية وما تزال الى يومنا هذا شاهد عيان على ذلك في معظم انحاء العالم الاسلامي وفي كبريات المكتبات العالمية في الاسكوريال في اسبانيا وفي باريس ولندن وبرلين وموسكو واسطمبول مخطوطات ومجلدات لكتب عربية اصيلة بعضها لم يشهد النور او لم تصل اليه اعمال المحققين والدارسين وذلك عدا ما في المكتبات الخاصة من ذخائر وكنوز .

وبعد ان انتشر علماء المسلمين من عرب وغيرهم في بلاد الاسلام يعلمون الناس القرءان ويفسرونه وينشرون تعاليمه .. صار ضروريا على كل مسلم وحتميا ان يتعلم مباديء اللغة العربية ليزداد ايمانا وقربى الى الله .

بعد هذا كله الا يحق لكل عربي ان يفاخر بالاسلام الذى نصر العربية وجعلها لغة الحضارة والخلود ومكن العربي ان يتصل بكل مسلم في انحاء الارض بمجرد القاء تحية الاسلام واقراء السلام وهل اكون مبالغا في النهاية اذا قلت : ان المسلم لا يحسن اسلامه اذا لم يحب العربية .. والعرب وان العربي لا تصح عروبته اذا لم يفخر بالاسلام ولو كان على غير هذا الدين .